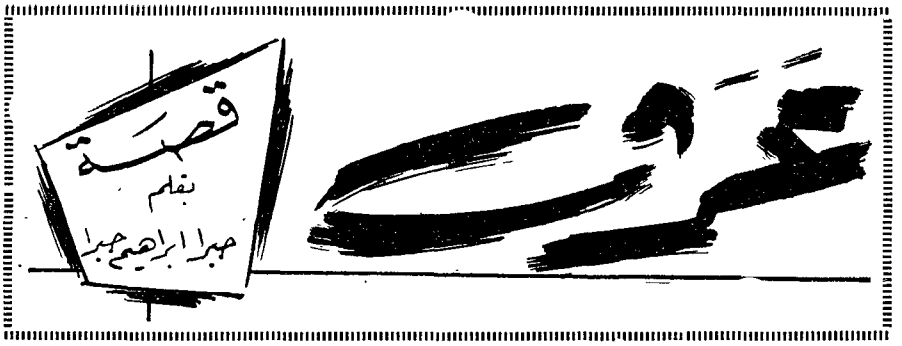

«خذ خليلاً مثلاً. هل يتردد في فتح فكيه ليتلقى بينهما سيلاً من الفلوس؟ صورة رائعة! خليل، بشفتيه الغليظتين، وشاربه الأشبه بفرشاة اسنان قديمة، يغمض عينيه ويفتح فكيه – اكثر فاكثر فاكثر، واذا الفلوس الدافقة تراب يستقر في حلقه وعلى لسانه، واذا هو يسعل، ويبصق، ويتفتف، ويشتم شرف فلان وفلان، ويتمنى لو ينهش باسنانه اعراضهم جميعاً.

«لم انم ليلة البارحة الا ثلاث ساعات. ذهبت عند فضيلة. فضيلة! سامح الله والديها. سأسمي ابنتي خطيئة، لكي تتنبه الى وجودها. لم انم لانني كنت افكر في الفضيلة والرذيلة. اين نضع خليلاً مثلاً بين طرفي الفضيلة والرذيلة؟ ما هي الخطايا المميتة السبع، وايتها تنطبق عليه؟

«ولكنني اتساءل احياناً لماذا اوزع على الناس احكاماً دون ان احكم على نفسي؟ هذه على الاقل فضيلة يجب ان اتحلى بها. سأحكم على نفسي اولاً، ثم على الآخرين. ومن حلت عليه لعنة الآلهة لا يرى ضيراً في حلولها على غيره. واللعنة لا بد من حلولها – اليوم او غداً، او بعد غد. فلا ترفع خشمك علينا، لانك انت ايضاً ستكون هدفاً للعنة.

«وكنت قبل لحظة على وشك القول، ماذا يهمك من امري حتى أقحمه عليك، وانت تريد الحديث عن خليل، عدوك الوفي وحبيبك اللدود ولكن امري مهم لديك اهميته لدي. لانني اقود وانت تتبع. لانني وضعت السلم لك لا لتصعد عليه – وذلك مستحيل – بل لتنزل عليه، اسفل، فأسفل، فأسفل. ولكنني سأكون هناك قبلك، سأكون هناك مع الحاقدين والمحبين، مع الذين يقضون الليالي على السطوح متأففين من القمر، والذين يشتمون الحمام في الصبح لنواحه البغيض. مسكين ذلك الشاعر الذي بكى لنوح الحمام السجين في بغداد ولم يبك للناس:

ناحت مطوقة بباب الطاق
فجرت سوابق دمعي المهراق

لِمَ انه بكى لنفسه السجينة؟ مسكين. اننا اليوم لا نبكي. بل نصخب ونشتم. ولهذا فانني فجر هذا اليوم، وانا في سريري على السطح، عندما حطت حمامة على مقربة مني امسكت بكأس الماء التي كانت على المائدة الصغيرة قرب فراشي وقذفتها بكل عزمي، ففرت وهي تنوح، وكست الشظايا الارض حولي. وبعد خمس دقائق قمت من الفراش، ودست على شظية منها دخلت قدمي بنعومة، فرقصت من الألم: حمار، حمار. كيف تنسى الشظايا بهذه السرعة؟ ولكن هذا الحمام شيء مزعج في الصباح المبكر كأنه بهديله الكئيب المتلاحق عند الفجر يحذرك من التفاؤل، ويذكرك بانك ما زلت تهبط السلم. درجة درجة، درجة.

«خليل الصفافيري، كما قلت، لا يأنف من شيء ما دام الفلس فيه مضموناً. جلد تخين، رأس صلب، معدة طحانة، هذا خليل. يحمل شهادته الجامعية كدرع يصد عنه تهمة من يقول انه «غير مثقف». ثقافة؟ الثقافة هي أن تملك بيتاً فيه عشر غرف، وسيارة. وعدة مئات من الاسهم – والبقية تأتي. انها حينئذ تأتي طائعة مختارة: زوجة (جميلة في الغالب)، مركز (محسود في الغالب أيضاً)، و.... فلوس أخرى ولكن يجب ان تستعد كخليل لان تفعل، لا كل ما يجوز فعله، بل كل ما يمكن فعله، وتتذكر الفارق.

«خليل، بالاختصار، رجل ناجح. قد يقال انه شره، طماع، بخيل – هذا ليس الا كلام الحاسدين. اما انت، فما الذي تفعله؟ تأتيني كل يوم لتحدثني عن صداقتك القديمة بخليل، وترفض الاعتراف بأنه ناجح. وما يضيره انه صغير العينين، كبير الشفتين؟ انه سيتزوج عن قريب من أميمة، وما الذي ستفعله انت حينئذ؟ ستجلس معي في المقهى، وتحصي الغادين والرائحين، وسأحدثك كيف ضاجعت أمس فضيلة بعد ان شربت ربعاً من العرق؛ وتحدثني انت عن القصيدة التي نظمتها وخجلت من تلاوتها. حين تكتب تموع نفسك، يا مصطفى، يلتف خيالك حول ساقي أميمة، ولكنك تكتب عن عينيها، تتمنى لو تجرها من شعرها الى ضفة دجلة وتتمرغ معها عارية في الطين، ولكنك تكتب عن لوعة نظيفة نقية، كأنها لم تصدر عن شبق لا يرحم وخيبة لا تلين. فضيلة يا عزيزي في انتظارك. وفضيلة نقية على طريقتها، وهي لا ترفع فوق رأسها اية شهادة لتوهم الناس بأنها مثقفة. هي هي. وجودها ماهيتها، والعكس بالعكس. لا شوائب ولا مركز ولا بيوت ولا سيارة شفرولية. فضيلة في انتظارك في اسفل السلم.»

لم ينطق مصطفى أحمد بكلمة، وجليسه في المقهى يتدفق كلاماً. كان العرق ينضح من جبين مصطفى على رسله يمسحه بين الآونة والأخرى بكف يده، وكوعاه متكئان على المائدة الحديدية الصغيرة.

ولم يكن عباس ليأبه أيصغي مصطفى اليه ام لا. فقد شرب شيئاً من العرق في الدار – ما يكفيه للانطلاق بالكلام دون ان يهمه اذا كان هناك من يصغي اليه ما دام بجالسه. وقد جاء الى المقهى حيث لقي مصطفى جالساً وحده يقرأ في كتاب عن علم النفس، وهو عالم تمام العلم بأنه اذا جاء هنا بعد العاشرة مساء سيجد مصطفى في انتظاره، حاملاً كتابين او ثلاثة، بعضها عربي وبعضها انكليزي، وقد اتسخت غلافاتها بيد سخية العرق.

ولكن مصطفى لم ينطق بكلمة. لم يكن شارد الذهن، بل كان يصغي الى كل كلمة تفوح منها الكحول بين شفتي عباس. عباس جمة السرحان، خريج كلية الحقوق، المحاسب في احدى دوائر الحكومة، الذي اهترأت اطراف اصابعه بعد الدنانير، دون ان يستطيع ان يضع شيئاً منها في جيبه.

وفجأة وقف مصطفى ،وتناول الكتب التي على المنضدة الصغيرة . فنظر اليه عباس من على مقعده وقال :

« مستعجل ؟ عندك شغل ؟ »

فلم يجب مصطفى ، بل مشى في اتجاه الباب ، والقى باربعين فلساً في طبق صاحب المقهى ، وخرج الى الطريق . فلحق به عباس ، ومشى بمحاذاته ، وقـــال :

« من يستطيع النوم مبكراً في هذا الحر ؟ انا اصلاً لا انام اكثر من اربع او خمس ساعات هذه الليالي . اترافقني فنذهب الى « الاكروبولس» ؟ لم نذهب هناك منذ زمن . وقد اكتشفت بيتاً جديداً على مقربة منه . »

فقال مصطفى : « الاكروبولس ؟ لا . اني ذاهب الى البيت . »

وعلى ايقـــاع خطواتها تكرر الاسم الاغريقي في ذهن مصطفى – اكروبولس ، اكروبولس ، نكروبولس – نكرو – بولس ، مدينة الموتى ، موتى ، ومنها الى بيت جديد ، الى فضيلة جديدة . تفضـــلوا استريحوا . اربع بنات . سنية ؟ والله مشغولة الان . بعد ربع ساعة . فضيلة . أميمة مشغولة . خليل معها . بعد عشرين سنة – ربما ، يكون خليل قد فرغ ، وأميمة ؟ عمرها اربعون او خمس واربعون سنة ، او خمسون. وانا ما زلت انتظر في الغرفة الخارجية . عجيب ، مـــا زالت تبدو صبية . هي هي . فضيلة وجودها ماهيتها...

وعباس ما زال يقول : « من يستطيع الذهاب الى البيت الان ؟ بيتنا مثل جهنم . لا من حيث الحر فحسب ، بل من ناحية من هم فيه . وانا لا اعلم كلما دخلته أأنا من شياطينه ام روح من عالم الموتى يزج بي فيه.تصور، وصلت البيت البارحة في الواحدة بعد منتصف الليل ..... »

ولكن مصطفى لم يسمع من البقية الا كلمات لا تسجل معنى في ذهنـــه . فقد تذكر الليلة السابقة .

« عاش من شافك ! » قالها خليل كأنه يعنيها فعلاً ، وقد وقف ليصافحه في حديقة نادي المحامين . فانقلب مصطفى الى كتلة تـــنز بالعاطفة لمدة دقيقتين وقال :

« من الذي انشغل عن الآخر يا خليل ؟ »

– والله ، مصطفى ، انا مقصر ، ولكنك تدري ...

– لا والله لا ادري . تغيب عنا ، بل تتخلى عنا .

– الله اعلم بما في القلوب .

كاد مصطفى يعانق خليلاً ، بل كاد يقبله على خده ، فيضع في قبلته حرارة صداقة طويلة العهد ، ترجع الى ايام الطفولة . ولكنه كان يعلم ان خليـــلاً قد « اختلف » منذ سنة او اكثر ، منذ انه جعل يشتغل بالتجارة والسياسة معاً . وقد رآه مصطفى يبتعد عنه يوماً بعد يوم حتى يبلغ ذلك البعد السحيق المخيف الذي تعبر عنه نظرة جامدة هنا وكلمة زاجرة هناك . اما في تلك اللحظة فقد شعر أن المسافة بينهما تلاشت واذا هما قريبان قربهما القديم . غير ان الشعور لم يدم الا ثواني معدودة ، فقد داهمهما رجل لا يعرفـــه مصطفى ، اخذ بيد خليل مصافحاً وقال : تهانينا ! مـــبروك ! » وانسحب وخليل يشكره .

فسأله مصطفى : « على م هذه التهنئة؟ يظهر ان اخبارك ما عدنا نسمعها»

فانبسطت تقاطيع خليل ، وبدا كأن وجهه سيعرض عرض العمارة التي وراءه جذلا ، حين تحركت شفتاه كمطرقتين في اتجاهين متضادين ،وقال :

« ألم تسمع أني خطبت ؟ »

– لا والله . على من ؟

– على اميمة ، أميمة عثمان السماوي .

« أميمة ؟ » قالها مصطفى قبل ان تغص الكلمة في حلقه . وأحس بقلبه يغور في أحشائه .

– أتعرفها ؟

– آ ..... بالوجه فقط .

(بالوجه فقط ! كان الاجدر به ان يقول : بالدم ، ولفائف اللحم ، وتلافيف الدماغ . بالاحشاء والكبد والمرارة . أليست تلك معرفة اعمق واوثق من معرفة اللسان ؟ وهذه القصائد الكثيرة التي يخجل من تلاوتها لاحد – أليست دليل معرفته بها ؟ الم يحدثها أمسيات طويلة وهو قابـــع وحده في هذا المقهى وذاك ، وهو يسود اوراقاً تمشي بكعبها العالي عـــلى كل سطر فيها ؟ إن لم تكن تلك معرفة – أوه ، بالوجه فقط !)

وقال خليل : « لقد مضت سنتان وانا اشتغل مع ابيها ، ونحن الان نوسع مكتبنا . »

– هذا ما سمعته .

– لم لا تأتينا الى المكتب ؟

– سآتي .

– اتعرف رقم التلفون ؟

– سأجده في الدليل .

– باسم عثمان السماوي – المكتب . بعد السادسة مساء اذا امكن ، لاننا في بقية النهار مشغولون جداً .

فتمنى مصطفى لو يغور ، لو يهوي الى اعمـــاق الارض حيث لا يرى وجهه مرة ثانية . فقد شعر ان خليلاً يفتح باباً يسوقه اليه ، ويقول له : تفضل واخرج ، وعد الينا في مناسبة اخرى .

« .. وامي كالعادة تتنحنح كلما جئت متأخراً لتثبت لي انها مستقيظـــة في انتظاري . ولكن دون ان تفوه بكلمة . تتنحنح فقط ، كأنها تقول : لا تظن انني أجهل اين كنت ... النساء لا يخفى عليهن شيء . نحن الرجال ابرياء سذج اذا قيس الواحد منا بأية امرأة – او اية فتـــاة . والحرارة تنضج المرأة بسرعة ، كما تنضج الفاكهة . ها مصطفى ! ضعهـــا في احدى قصائدك ! « والشمس تنضج المرأة عاجلاً ، وما المرأة الا فاكهة .... » طبعاً الوزن مكسور . ولكن الحقيقة تتخطى الاوزان والقوافي : نساء كالفواكه عفنت قلوبها ، ورجال كالاطفال يريدون التهامهـــا فيعلق الدود بأسنانهم ويبقى العفن في زلاعيمهم ! وانا اقول لك يا مصطفى: لقد عضضت الفاكهة ، واكاد ارى الدود بين شفتيك ... »

كانت اعمدة شارع الرشيد تتلاحق ظلالها على وجـــه مصطفى ، وهو يمشي على طرف الرصيف المسقوف ، وعباس لا ينقطع عن الكلام وهو مغمور في الظل بعيداً عن النور المسلط عـــلى وسط الشارع . وفي الرواق المديد لهاث لافح ، يقترن بين الحين والآخر بنفحة شديـــدة النتن تجود بها البواليع .

وأضاف عباس « ..: ولو كنت مكانك لبصقت الدود في وجه خليل ، ليأخذه الى اميمة العزيزة ، ليعيده الى مصدره الاول . »

ومر مصطفى براحة يده فوق جبينه وصدغه وخده يمسح بها نضح العرق. واحس كأن الكتب بحرارة يده الاخرى وعرقها تكاد تذوب . ثم قال:

« ولكن ما دخل أميمة بكل ذلك ؟ »

فانهال عباس على السؤال ينهشه نهشاً : لأميمة كل الدخل . ان لم تكن أميمة ، فهي فاطمة ، وان لم تكن فاطمة فهي انعام . الواحد في الكل ،

والكل في واحد – سوى فضيلة بالطبع فضيلة . تعترف بانها مصنوعة من طين . الشمس تقويها ، ثم تلوحها ، ثم تصدعها الى ان تنهار . اما الاخريات فهن فواكه ولا يرى مدخل الدود الى قلوبهن الا من كانت له عين فاحصة . وهنا الخطر . الخطر في اللؤم والرياء . الخطر في أن ترى خليلاً يتخلى عن كل رابط ووازع دون أن تحرك انت ساكناً ، لانه قد ابقى على مظاهر الروابط والمكارم ... الخطر في الا ترى مدخل السوس الى قلبه . »

– ولكن ما دخل أميمة بذلك ؟

– قلت لك كل الدخل . لعلك تقول ان خليلاً لا يعرف حبك لهـا ، وان كليهما غافل عنك لا يشعر بوجودك . ذلك عين الخطأ . كلاهما يحمل ذكرك عبئاً ثقيلاً على ضميره . ولو ظهرت الآن فجـأة امام خليل ، لرأيته كيف يشحب لونه وترتجف اوصاله . ولو ظهرت فجأة امام أميمة لرأيتها كيف ترفع كفيها الى وجهها وتقطع قلبك بالبكاء .

– ولكن خليلاً لا يعرف شيئاً عن علاقتي بأميمة .

– اقول لك انك ساذج ولكنك لا تصدقني . اسمع التفاصيل اذن . قبل اسبوعين – لا بل اكثر بكثير – المهم ، قبل مدة جاءني خليـل الصفافيري ليقبض من الدائرة مبلغاً بالف وثلاثمائة وسبعة وخمسين ديناراً . فاستحضرت له استكان شاي ، وقدمت له سيجارة ، وسألته عن احواله ، الى ان ذكر لي انه سيخطب . قلت له على من ؟ قال : اميمة . قلت: أكيد؟ قال بالطبع . فلم اتردد بالقاء القنبلة في وجهه وقلت : ولكن الا تعلم ان مصطفى أحمد ... يحب ... يريدها ، ومن زمن طويل ؟ قـال – وهذه كلماته بالحرف الواحد – قال : بالله اتركنا من هذا المعتوه . قالها كأمر مفروغ منه . ثم أضاف : طبعاً سمعت انه يحبها . ولكن الاشرف له ان يستحي . أميمة عارفة بالموضوع ومتضايقه جداً ...

– أميمة متضايقة جداً ؟

– متضايقة جداً .....

(وفي الحال كان مصطفى على عتبة باب خليل . كان البيت مظلماً ، ولما ضغط على زر الجرس ، واعاد الضغط واطاله ، لم يجبه احد . فبقي واقفاً مكانه ، وهو يتصبب عرقاً . ثم جاء خليل في سيارته الشفروليه ، واوقفها بالبوابة ونزل منها ، فتقدم منه مصطفى بخطى ثابتة نازلاً درجـتي مدخل البيت ، فاجفل خليل ، وتراجـع الى الوراء ، وامسك باحد مصراعي البوابة الحديدية . ثم نطق :

« اوه ... مصطفى ... خوفتني ! »

– صحيح ؟

– لندخل البيت . لا بد عندك شيء مهم ، والا لما جئتني في هذه الساعة

– عندي شيء مهم . ولكننالن ندخل البيت . بل لن تدخله انت ابداً .

– مصطفى ، ما هذا الكلام ؟

ورفع مصطفى قبضتين متشنجتي الاصابع ، وقال : « مـاذا قلت عني بخصوص اميمة ؟ »

فانحبس الصوت لحظتين في حلق خليل ، الى ان جاء في بحة جافة : « لم ... أقل ... شيئاً .. »

– امتضايقة اميمة مني ؟

– لم اقل شيئاً ... والله .

وارتفعت يد مصطفى مفتوحة الاصابع ، وقد استحال كل اصبـع منها فولاذاً عاتياً ، وقال : « اميمة متضايقة مني ؟ » وتراجع خليل هابطاً درجة البوابة وعيناه جاحظتان وارتطم ظهره بسيارته ، ومصطفى يخطو معه خطوات ضيقة ثابتة شريرة . ثم هوى على عنقه مرة واحدة بكلتا يديه ، ودفع ابهاميه في حنجرته ، ضاغطاً ، ضاغطاً ، بعزم وعنف الى ان سمـع حنجرته تطق ، ووقع رأسه جانباً ، ثم خر على الارض لا حراك فيه .

ومسح مصطفى براحته العرق عن جبينه ، وبكل هدوء عاد ماشياً الى شارع الرشيد...)

« مصطفى ! اما تسمع ؟ »

– ها ؟

– سألتك ، الا تنزل معي في هذا الزقاق ؟

– لماذا ؟

– أعرف بيتاً هنا فيه بنات لم اجئه منذ زمان .

– ها ؟ بيت ؟ اي والله . لا . لا .

– ما هذا التردد ؟

– لانني اذا لم أشرب ، يا عباس ، لا استطيع مجابهة هؤلاء النساء .

فضحك عباس ضحكة من كسب لعبة بعد عناء شديد ، وطبطب على كتف مصطفى وقال : « لم لا تحكي ، لم لا تحكي ؟ » وطبطب على كتفه مرة أخرى .

غير أن مصطفى شعر أن عباساً يسحقه بكفه المتوددة ، وهز بكتفيه ياقي بلمسته عنه.

وأردف عباس : « الآن أنسيك أميمة . ولكن اسرع ، قبـل ان يعزل ابو بطرس . »

وانتبه مصطفى الى نفسه وقدماه تخطوان خطوات واسعة متسارعة ، وهو يقول : « قبل يومين أو ثلاثة قتل رجل زوجته في شارعنا بالعصـا . هوى بالعصا على رأسها فسقطت مكانها مغلوقة الجمجمة . »

وكأنه لم يغب على عباس ان هناك اتصالاً خفياً بين هذه العبارة المفاجئة وبين ما يدور في ذهن مصطفى فقال : « العصا بسيطة . منذ بضعة أيام قتل رجل زوجته بالفأس . تصور : أمسك بالفأس ونزل بها على رأسها وعنقها وبطنها – وعلى كل عضو من اعضـائها ، كأنها شجرة يحتطبها ، وتركها اوصالاً مبعثرة ، ثم ذهب كالسبع وسلم نفسه للشرطة واتهمها بالزنا . هـل قامت الدنيا وقعدت ؟ لا . حكم على القاتل بالسجن لثـلاث سنوات ، وغسل الشرف . »

– شيء رهيب ؟

– لماذا ؟ المرأة كانت منذ القدم موضع الشك . الدودة في قلبها ، وهي تعمل فيه تنتظر تسمم من يغرز اسنانه فيها ، فاذا رأيت الدودة عليك بالقضاء عليها قبل ان تقذف بيضها الى حلقك وفمك . فالشمس التي تنضج الفاكهة ، تعجل ايضاً في توالد الدود .

– انك برموزك هذه تبالغ في الحقيقة .

– اني اعد أميمة خائنة .

– أرجوك الا تعود الى ذكرها .

– وأعد خليلاً خائناً ايضاً .

– كفى ! أف !

– لا بأس . في الاكروبولس نسيان الحقائق والرموز . ولو كنت مكانك لجعلت الحقائق اضخم من الرموز . فاذا نسيت الرموز لم تنس الحقائق.

– ولكن الصحيح هو عكس ذلك بالضبط . اننا لئلا ننسى الحقائق نبقي على خلاصتها مركزة في الرموز .

فضحك عباس وقال : « هذا القول لا شك من كتاب علم النفس الذي نقرأه . اتدري الحقيقة التي يرمز اليها كل ما في الوجود ؟ من يكثر قراءة الكتب لا ينجح في الحياة . هذه هي الحقيقة الاولى . كم كتاباً يقرأ خليل

الصفافيري في السنة ؟ والحقيقة الثانية هي ان الشباب الذين مثلك يقبلون بالوهم فيجهلون اغتنام الحقائق . ما الذي حصلت عليه من أميمة سوى قبلة مختلسة منذ سنة او اكثر ؟ ...

قبلة قبلة قبلة قبلة .

– أتحبني كل هذا الحب ؟

فدس مصطفى يده في شعرها وهمس : « لا تتكلمي لئلا يسمعونا . »

ثم اسرع وأغلق الباب ، وفتح حنفية المغسلة لعل صوت الماء المتدفق يوهم اي قادم مفاجيء بأن في الحمام من يغتسل ، فلا يدخل ، ولعل صوت الماء ، رش ش ش ... يغطي على الغمغمة اللذيذة وطرقعة القبل ...

كان بقية المدعوين يلغطون في غرفة الاستقبال ، وهم يشربون الشاي ، ثم قام بعضهم وعزف اسطوانة رافضة . ومصطفى يضغط أميمة الى صدره في الحمام . واصابعه مغروسة في لحمها ، وذراعاها تطوّقان عنقه بشدة وشفاههما تتقطع تقبيلاً .

ثم قالت أميمة : « لقد اكلت حمرتي كلها ... كيف اخرج الان بينهم وشفتاي هكذا بلا حمرة ؟» وتفرست في وجهها في المرآة التي فوق المغسلة .

وفي الوقت نفسه علا صياح من غرفة الاستقبال البعيدة : « مصطفى ، مصطفى ! اين مصطفى ؟ »

فتسلل من الحمام الى الباب الخلفي ومنه الى الحديقة ، ومن هناك –

دخلا الى رواق ضيق طويل ، باهر الضوء ، بلغ بهما الحديقة باضوائها الملونة الخافتة ، وقد امتلأت باصوات الشاربين والضاحكين والساخطين ، وانساب ابو بطرس من احدى الزوايا نحوهما انسياب الارقط في الادغال وهو يقول : « اهلاً ، اهلاً ، أبا فاضل . تفضلوا هنا ، هنا . » وشق لهما طريقاً خلال الجو المترع بفوح العرق ، الى ان استقر بهما على مائدة تكاد تختفي تحت شجرة كثيفة . وطلب كل منهما نصف ربع من العرق .

واستأنف عباس الكلام : « كما قلت لك . ان الذين مثلك يقبلون بالوهم – »

غير انه فوجيء بمقاطعة مصطفى له اذ قال : « وانت يا عباس ، الا تعانق الاوهام ليلك ونهارك : »

– انا ؟ انا رجل واقعي . أنا لا يأخذني وهم ، ولا يخدعني مظهر . انا لا اسعى الا وراء الحقائق .

– وراء فضيلة مثلا .

– وراء فضيلة مثلا ، واعرف سعرها بالضبط .

وحل بينهما فجأة صمت تبادلا فيه النظرات لاول مرة ، الى ان جاء الغلام بالمشروب والثلج والمزة ، ولكي يفسح لها المكان على المائدة ازاح كتب مصطفى جانباً ، وانصرف فجعلا يصبان الماء في العرق ، ويضيفان اليه قطع الثلج ، ثم جرع عباس مقداراً كبيراً مما في كأسه وقال : « واعرف سعر خليل وأميمة بالضبط ايضاً . »

فشعر مصطفى بالدم يتفجر في رأسه وصاح .

« يكفي ، اف ! اما سئمت الحديث عنهما ؟ »

فدهش عباس لتلك الغضبة الفجائية وجرع ما تبقى في كأسه بسرعة وقال : « مهلا ، مهلا .. لماذا تغضب : ما الذي بقي بينك وبين خليل او بينك وبين أميمة حتى تغضب لكلامي ؟ إني اعرف سعرهما بالضبط ، لانني اراهما بعيني ، لا بعينيك . واريدك ان تراهما بعيني انا ، لتعرف حقيقة وضعك »

– بعينيك ؟ انك لا ترى الا القبح والعهر .

– للنقي كل شيء نقي ! ها ها !...

« القبح والفقر . وهما متصلان اتصالاً خبيثاً ، ويجب ان تتخلص منهما».

قال ذلك خليل ولف ذراع مصطفى بذراعه وهما يمشيان في الطريق المرتفعة المطلة على الاكواخ الطينية المتكتلة المتواترة ، تحيط بكل منها تلال صغيرة من اقراص روث البقر ، وصبية عراة الاجسام يركضون هنا وهناك بقاماتهم السمراء الضئيلة ، ثم يجلسون على التراب والذباب يمتص القذى من عيونهم .

فقال مصطفى : « يجب ان نقرأ . يجب ان نقرأ كثيراً ، لنفهم معنى الفقر ونعرف كيف نعالجه . »

فقال خليل : « لن تكفينا الدراسة في الكلية . يجب ان نقرأ كل انواع الكتب ، ولا سيما بعد ان نتخرج . »

– سنقرأ ونكتب ونعمل ، لنقضي على كل هذا الفقر وهذا القبح . »

وانطلق نحوهما من احد الاكواخ كلب ، وجعل ينبح وينبح ، ولا يكف عن النباح ، كأنه لا يعرف لوجوده معنى الا اذا قطع حنجرته بالنباح .

وسمع مصطفى عباساً يقول مستمراً : « وانت جالس بين مقاعد المقهى تقرأ كتب علم النفس (ومد عباس يده الى الكتب التي على المائدة) ولا ترى نفسك كالحشرة تحوم بين القاذورات ... القبح والعهر ! » وقذف بالكتب ارضاً .

فانسدل امام عيني مصطفى غشاء مظلم ، وانبثقت في أعضائه عزيمة جبارة فضت على كل ارادة عنده ووجد نفسه يمسك بالمائدة ويقلبها بكل ما عليها في حضن عباس فاختل توازن كرسي عباس وسقط على الارض قبل ان يدرك ما حدث ، ورفع مصطفى كرسياً بيدين قويتين وهوى به على رأس صديقه وهو يحاول النهوض ويصيح : مصطفى ! ولك مصطفي ! مصطفى !» ومصطفى يتمتم بشتائم بذيئة تتكرر بين شفتيه دون ان يستطيع لها وقفاً . غير ان جماعة من الشاربين امسكوا بمصطفى من الخلف ، ومنعوا ذراعيه عن الحركة ، فجعل يركل ويرفس بقدميه لعلها تصيبان عباساً وهو يحاول النهوض ، واصابه مرة او مرتين بمقدم حذائه في الصدر ، الى ان جروه بعيداً صوب الرواق ، وقد ملأت رئتيه رائحة المستكي والكحول المنطلقة من انفاسهم . وراح ابو بطرس يرفرف حول الهرج والمرج عاجزاً ، خائفاً ، لان معارك السكارى تكلفه دائماً كرسياً قديماً هنا ومائدة مفلعة هناك . ولكن ما ان أبعد مصطفى حتى اقبل ابو بطرس على عباس واعانه في القيام على قدميه ، وجعل ينفض بالمنشفة عن حضنه ما علق به من الفاصوليا والطماطم وبقية انواع المزة . وقد تبلل قميص عباس الابيض وبنطلونه بشكل مزر ، وأحس بالبلل بين فخذيه ، وفاح العرق من داخل قبصه .

اما مصطفى فادار ظهره الى الحديقة ودخل الرواق الضيق الطويل واخرج منديلا من جيبه مسح به دفق العرق فوق حاجبيه وبين عينيه وحول عنقه ، ولما بلغ الباب شعر انه قد نسي شيئاً لا يذكره بالضبط ، فجعل يتحسس جيوبه ، ثم التفت الى الوراء ، وخطا في الرواق عائداً الى الحديقة ، فتصدى له خادمان ، وقال احدهما :

« اتريد أن تأتينا الشرطة الآن ؟ »

غير انه دفعهما عنه ، وذهب الى حيث كان جمع من الرجال ملتفين حول عباس يلغطون بما حدث فصمتوا في الحال عند رؤيته عائداً ، غير انه انحنى فوق الكتب الثلاثة التي كانت مبعثرة على الارض ، وقد داس عليها الراقصون والغادون اثناء المعركة ، والتقطها واحداً واحداً دون ان ينظر الى احد ، ورفع يده الى جبينه يمسح بها نضح العرق مرة اخرى ، وعاد الى الرواق الباهر الضوء ، وخرج منه الى الليل والشارع الطويل .

بغداد

جبرا ابراهيم جبرا